[55] ذكر وصول الخبر الحادث بمرج الرقاد على الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه

وأنه لما وصل خبر هذه الوقعية الى حضرة الأمير الأعز أدامه الله برباط الفتح بسلى ، وكانت العساكر المؤدية من الموحدين أعانهم الله والعرب المجلوبين والأجناد المرسومين قد تلاحقت بالمقر الكريم على نية ما تحركوا اليه من الغزو لأهل الشقاء والروم اختار منهم الأمر الكريم أدامه الله عسكراً ضخماً ، فخماً شهماً ، من أعيان كل قبيل من أهل الشهامة والنجدة الذين تعودوا دلج الليل وإيطاء القتيل وجمعهم ووعظهم وعرفهم ما لهم في نصر الحق وقمع الباطل عند الله تعالى من الزلفى والأجر الدائم الكفيل الأوفى ، واجتمع في عدد الفرسان والرجال زهاء عشرين الفاً عاهدوا الله تعالى وبايعوا الخليفة أمير المؤمنين - أدام الله أوامره ، وحاز مفاخره ، على مناجزة الأعداء الأشقياء - والكفار الأعداء والروم الكافرين وحماية لله تعالى في الدين وعوناً لإخوانهم الموحدين الصابرين المحصورين بقصبة غرناطة ، وأمر عليهم أمير المؤمنين رضي الله عنه ابنه الرضي الأمير المرتضى أبا يعقوب يوسف رضي الله عنه وأصحبه الشيخ الفاضل العاقل أبا يعقوب [56] يوسف بن سليمان[1] زعيم الموحدين ، وخالصة أمير المؤمنين ، لتجربته بالحروب ، ودهيه في الخطوب ، ومقارعته قديماً وحديثاً بهم الأبطال المتدرعين بالقلوب ، تيمناً به بما خص في هذا الأمر من النصر العجيب ، والرأي الناصح المصيب ، فتحركوا منه من رباط الفتح بسلى نافرين ، مسارعين بالسير مواصلين ، إلى أن وصلوا مجاز[2] البحر الزقاق فاجازوا منه الى الخضراء[3] ونزلوا فيها ، ولم

---

(1) راجع التعليق رقم 2 ص182

(2) لم ندر هل يقصد قصر مصمودة أو سبتة أو مركزاً ثالثاً ولكنا اعتدنا أنه عندما يكون النزول في طريف يكون الإبحار من قصر مصمودة . . راجع التعليق رقم 2 ص 191 .

(3) يعني الجزيرة الخضراء ، وتقع في الشمال الشرقي من جزيرة طريف غربي جبل طارق .

'Huici. P. 224

تزل العساكر تتلاحق ، وتتبادر في الإجازة وتتسابق ، حتى أكملوا إجازتهم ثم تحركوا من «الجزيرة الخضراء » على تعبية ، وطيب سريرة وفية ، صحبة الأمير والشيخ الفاضل المدبر وأموا على شاطىء البحر في الطريق السالك الى مالقة فاجتمعوا بمالقة مع السيد أبي سعيد .

ذكر الرأي السديد المرفق من الشيخ المرحوم أبي يعقوب إلى عساكر الموحدين

وتحرك السيدان الأجلان أبو يعقوب وأبو سعيد والشيخ المرحوم أبو يعقوب المذكور من مدينة مالقة بالعساكر المظفرة بعد تزودهم من الدقيق والعلوفات، وأدرار النعم عليهم بالبركات، ومعونتهم على غزوهم بأكمل الخيرات، ونهدوا إلى أعدائهم بعون الله تعالى وبرأي الشيخ المرحوم [57] أبي يعقوب، يرحل بهم كل يوم مرحلة رفيقة، ويقيم بحسب ما يرى أن الرفق يعين فريقه، قد سلك الطريق حيث اجتمع رأيه مع رأي الأدلاء من الرفق بالضعفاء، والنهضة بأهل الحزم والنجدة والوفاء، آل غرناطة بمحلة الأشقياء. وابن مردنيش قد وصل بحشده وعسكريته، وبالنصارى شيعته، طامعاً فيما اطمعه الشيطان، واساقه التباب والخسران، ونزل في الجبل المتصل بقصبة غرناطة، وابن همشك بجبل السبيكة[1] بالقصبة الحمراء مع النصارى وأميرهم العلج الأقرع حفيد البرهانس لعنه الله ومعه ابن القمط أرجال[2]

---

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 189.

(2) تذكر المصادر المسيحية ان القمط ارجال (Comte d'Urgel) كان سنة 1162 (517) هو ايرمانكو السابع (Ermengaud VII) الذي خلف اباه إيرمانكو السادس الملقب بدو كاستي (De Castille) سنة 1154 (548) وايرمانكو السابع هذا مات سنة 578 (1183) وخلفه ولده البكر ايرمانكو الثامن وأن النص الذي بين أيدينا يؤكد أن المقصود هو ايرمانكو السابع فهو الذي كان سنة 557 قمطا. . .هذا ونرى أن ابن صاحب الصلاة يسميه ابن القمط أرجال عوض القمط أرجال لنفس السبب الذي حمله على أن لا يعطي ألفار روذكيز عروفي اسمه الحقيقي وإنما حفيد البرهانس أي أن هذين الرجلين إيرمانكو السادس المدعو دو كاستي والفار فانيز كانا =

النصراني (و)[1] أخوه أيضاً في عدد أكثر من ثمانية آلاف فارس من النصارى أهلكهم الله سوى عسكريته الذميمة. وابن مردنيش في أكثر من هذا العدد وبين العسكرين وادي[2] حَدَارُه المتصل بغرناطة وقصبتها يفصل ما بينهما من الأرض في الاتصال، كما كان والحمد لله مهلكا لهم بالتردّي فيه يوم الحرب والنضال، وهم ينتظرون كل يوم وصول العساكر، ويظنون ظنوناً سيقت من الله تعالى حتوفهم فيها في ساعة ملاقاتهم بالسيوف البواتر، والموحدون أعانهم الله يمشون في طريقهم على تؤدتهم بصفا طَوِيّتهم، ونصر الله تحقق في أعلى الويتهم، حتى وصلوا الموضع المعروف بوادي دلر[3] القريب من قرية الهمدان[4] فأقاموا [58] عليه ثم ارتحلوا إلى وادي شنيل[5] على قرب من غرناطة، والكفرة بعجبهم يظنون أنهم لا يقربون إليهم وأنهم على عادتهم في التبّطي من حركتهم. فلما كان يوم الخميس[6] السابع والعشرين من رجب

= معروفين جداً لدى المسلمين ولذلك فانهم لم يسمعوا الابن والحفيد منهم إلا بهما. راجع التعليق رقم 1 ص 125، Dozy: Recherches page 387.

(1) لا توجد في أصل المخطوط - مع انها اعتبار لما ورد في المصادر المسيحية وتمشياً مع ما يُعطيه المعنى - ضرورية ولذلك أقحمناها بين هلالين، أما أخو القمط المشار إليه من قبل ابن صاحب الصلاة فهو كوسيران دوصال: (Caucerand de Sales) الذي مات سنة 1183 قريباً من بلنسية. انظر التعليق رقم 1 صفحة 125. Dozy: 387

(2) وادي حداره (Darro) اسم النهر الذي يخترق مدينة غرناطة وهو فرع صغير من نهر شنيل وقد كان في القديم يحمل اسم بحر القلزم!
ياقوت: معجم البلدان، المجلد الرابع ص 195 - 388 - الاحاطة ص 532.
Dozy: quelques anciennes Localités de L'Andalousie (Recherches) page: 342

(3) وادي دِلَر (Rio Dilar) قرية ما تزال إلى الآن، وتقع جنوب غرناطة على مقربة من قرية «البذول». الاحاطة: 310. Dozy: P. 345 - Huici P. 202.

(4) قرية الهمدان (Alhendin) تقع كذلك جنوب غرناطة قريباً من دلر، وقد استعارت هذا الاسم من القبيلة العربية المشهورة همدان وقد حرفت عن وبسي إلى (المهدان)؟ الاحاطة ص 118. Dozy: Recherched. page: 345.

(5) وادي شنيل (Rio Genil) يقع جنوب غرناطة وهو متفرع من نهر الوادي الكبير. الاحاطة ص 124. الحلل السندسية أول ص 129. Huici: 202 - 203.

(6) الموافق حسب جداول الدكتور كاطنوز هو 12 يوليه 1162 وهو ما عند دوزي في كتابه (Recherches).

الفرد عام سبعة وخمسين وخمس مائة جمع الشيخ المرحوم أبو يعقوب جميع أشياخ الموحدين أعانهم الله وأشياخ الأجناد والانجاد من مسوفة[1] ولمتونة والقبائل وأشياخ العرب الجائزين ووعظهم وأعاد التكرار بالموعظة بما لهم من الأجر عند الله تعالى في جهاد الكفرة أعدائه وعدوهم وأن الجنة مضمونة لهم عند الله إذا صدقوا، ووفوا بما بايعوا به ونطقوا. فجددوا في الجهاد النية. وأخلصوا الله الطوية. وأعلفوا خيلهم بعد صلاة الظهر من يومهم وعزموا على أن يسروا في الجهاد ليلهم واستلأموا السِّلاح وركبوا خيلهم بعد صَلاةِ العشاء من ليلة الجمعة الذي كان الفتح في صباحه الثامن والعشرين من رَجَب المؤرخ وقدموا أمامهم الأدلاء والرجالة المصامدة[2]، أهل النجدة المحامدة، وتسنموا في الجبل[3] من أعلاه الذي على وادي شنّيل المتصل بجبل السبكة والقصبة الحمراء حيث النصارى أهلكهم الله وصاحبهم ابن همشك ومشوا طول ليلتهم على تؤدةٍ في الجبل المذكور على شواهقه وأحجاره [59] وقد سهل الله عليهم الطريق، على وعره وقرب لديهم البعيد السحيق، ووعدهم بنصره، وكانت الليلة نيرة في وصفها، مقمرة في آخر نصفها.

فلما فرق ضوء الفجر بالصباح من يوم الجمعة الثامن والعشرين المؤرخ المذكور أطلوا على محلاّت الكفرة في ذلك الصباح، فبدؤوهم في مضاجعهم بالكفاح، وخلطوا أحشاءهم بالسيوف والرماح، فلم يلحقوا أن يركبوا خيلهم إلا وقد أجاز الله بهم ويلهم، ثم كانت منهم بعد موافقات وحملات ومدافعات على عادة كفرهم وطغيانهم وعبدتهم لصلبانهم. وضياء النور بالنصر قد انتشر، والصباح قد ميز العدو بصفته والجو بالقتام قد أظلم وأغبر، فلا تسمع إلا ضربة سيف بحتف أو صوت غمغمة، أو جر جمجمة. وقد أذهل الله

(1) مسوفة: احدى القبائل المتفرغة من صنهاجة التي تنتسب للبرانس. راجع التعليق رقم 1 صفحة 117.

(2) المصامدة هم المتنسبون لقبيلة مصمودة احدى القبائل السبع التي تفرعت عن البرانس. راجع التعليق رقم 1 صفحة 116 والتعليق رقم 1 صفحة 117 وكتاب «اسفي وما اليه» للعبدي.

(3) قد علمت أنه يُسمى كدية مردنيش أو كدية ابن سعد - راجع التعليق رقم 1 صفحة 189.

الكفرة وابن همشك وأنساهم، فظنوا أن الأرض من جبل السبيكة إلى محلة صاحبهم ابن مردنيش متصلة! وأعماهم في بصيرتهم وهي بوادي حدَارّه[1] منفصلة، فولوا أدبارهم عند الدفاع والانهزام، وتردّوا في وادي حدَارّه عند إظلام ذلك القتام، فتقطعت في حافات ذلك الوادي أجسامهم، وحان في ذلك الصباح السعيد حمامهم، وهزمهم الله تعالى ونصر أولياءه الموحدين. وقتل في المعركة الاقرع النصراني حفيد البرهانس[2] وحزّ رأسه وسيق بعد أيام من الهزيمة إلى [60] قرطبة وعلق بباب القنطرة[3]. وتردّى في الوادي المذكور ابن عُبَيد صهر[4] ابن مردنيش وقواده الأكابر وفرسانه المشاهير، وكان ابن مردنيش بالجبل المتصل بغرناطة على ما ذكرته يرى قتل إخوته ويعاين حسرته ويندب شيعته وكفرته. واتصلت الوقعية، السامعة المطيعة، في الأشقياء والنصارى من كل جانب. واستولوا[5] الموحدون أعانهم الله عليهم يقتلونهم بتحكيم الرماح والسيوف القواضب، في السهل والجبل بنصر الله الواحد الغالب، ودخلوا مدينة غرناطة وسط النهار، على أتم النصر والاظهار. وخرج الموحدون المحصورون من القصبة في الحين، قاتلين لمن في داخل المدينة من الأشقياء القاطنين، وأقلع ابن مردنيش منهزماً من موضع محلّته

---

(1) من المعلوم أن وادي حداره ليس الا مجرى هزيلاً، ولهذا يعتقد الأستاذ سيموني Simmonet أن القشتاليين عندما أرادوا النزول من المكان المسمى (La Cuesta de los muertos) سالكين طرقاً ضيقة ووعرة، سقطوا من أعلى إلى أسفل حيث وادي حدارة الذي يكثر عمقه في هذا المكان بالذات Recherches: page 379 com. 1

(2) عبارة ابن أبي زرع: «وقال ابن صاحب الصلاة: كان فتح غرناطة وقتل الاقرع النصراني عام سبعة وخمسين». القرطاس ثاني طبعة سلا ص 155.

(3) باب القنطرة أحد أبواب قرطبة ومنها باب اليهود والباب الجديد وباب عامر، ويذكر ابن عذاري أنه علق بباب القصر.
البيان المغرب ص 33. المقري: نفح الطيب 1949 ثان ص 13. الحميري: الروض — 153 156. الغزال: نتيجة الاجتهاد ص 37 - 36. Huici: p. 204.

(4) إياه يقصد أبو الحكم بن رضى البلنسي والى الاقرع حفيد البرهانس يشير في لاميته:
(حالَتْ على ابن عُبَيْدٍ بعد أقرعِه فأردَتْهُما. رجراجةٌ جُول)
انظر صفحة 283-287.

(5) كذا على اللغة الضعيفة..

بباقي شرذمته وترك أخبيته وأسلابه، كما أفرد في ذلك أصحابه واقتفى الموحدون أعانهم الله أثره وقتلوا من أدركوه وأخبر خبره، وأخذوا حاله وأثقاله، وسرى فارّاً بنفسه في تلك الجبال والأرجا، واسئله كيف نجا! وكان هذا الفتح من أعظم الفتوح التي يسّر الله لأهل الأندلس، ورفع عنهم الفتنة وردّ بارحهم إلى السّبيح[1] (؟) وأنعم عليهم بخيره ويسره الممنوح، وانتسب هذا الفتح بالعدوة والأندلس إلى سعد السيد الأعلى أبي يعقوب واستقر في نفوس [61] الناس ذلك، وعند أشياخ الموحدين أعزهم الله هنالك، وكان ذلك سبباً أن ينال الأمر العزيز والمماليك[2]. وأعلم السيدان المذكوران والشيخ المرحوم أبو يعقوب بن سليمان حضرة الخليفة رضي الله عنه في حين ذلك اليوم بالفتح العظيمَ الذي يسّره الله بيمنه ودعائه وحسن طويته في أهل الكفر، ووصلهم بعد ذلك دعاه رضي الله عنه لهم بالثواب على جهادهمْ الكريم، ثم أنالهم من بركاته وهباته ما أربى على التكميل والتميم. وما استسره ووعاه من الإمام المهدي المعصوم[3]، وسر بذلك سروراً تاماً، وشكر الله تعالى شكراً عاماً،

---

(1) كذا في الأصل، ولعله تحريف لكلمة التسبيح، ويكون القصد أن حالتهم تغيرت من تباريح إلى تسابيح شكراً لله وحمداً.

(2) كذا في أصل المخطوط، والمعنى أن هذا النصر كان من البواعث التي مكنت السيد أبا يعقوب وأنالته الأمر (الأمر هنا بمعنى النفوذ والجاه لا بمعنى الأمير) العزيز كما أنالته المماليك وهكذا حذف حرف الجر قبل للفظ «أن» كما هو الشائع نحويًا ويؤكد لك هذا تصرف ابن عذاري هنا حيث يقول: «وكان ذلك سبباً في نيله الأمر العزيز».
ابن عذاري صفحة 33.

(3) كذا ظل الموحدون الأول يلقبون المهدي بن تومرت، وسترى أن هذا اللقب لم يعد مُستساغاً خصوصاً من قبل المأمون بن المنصور بن عبد المؤمن بل إن تلك الهالة من القداسة التي كان يُضفيها الأوائل على المهدي أمست مدعاة للنقمة عليه، فقد روى التاريخ أن المأمون لما دخل مراكش سنة 627 صعد المنبر بجامع المنصور - وكان علامة أديباً بليغاً - فخطب في الناس ولعن المهدي على المنبر وقال: «لا تدعوه بالمهدي المعصوم ولكن ادعوه بالغويّ المذموم، ألا لا مهديّ إلا عيسى.... ولما نزل على المنبر أمر بالكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة وتغيير سننه التي ابتدعها للموحدين. ونعى عليه النداء للصلاة باللغة البربرية وغير ذلك من «السنن» التي اختص بها المهدي بل انه أمر بتدوير الدراهم التي ضربها المهدي مربعة وقال: ان كل ما فعله المهدي - مما هو بدعة - لا سبيل إلى اقراره.

واجتمع الموحدون أعانهم الله باخوانهم المحصورين في القصبة خير اجتماع، وشكروا الله تعالى على نصره لأمره المطاع، وإن غلبوا عدوهم فجازوهم صاعاً بصاع.

ولما أكمل الله هذا الفتح بعونه لم تبق بلد في البلاد المجاورة لغرناطة إلا وصل أهله تائبين، وبالطوع راغبين مذعنين متضرعين، فصفح عنهم بالعدل، وتفضل عليهم بما عود الله من الفضل، وتمشت الحال في ضم أموال المنافقين للمخزن، بما وجب عليهم من نفاقهم وارتدادهم إلى الفتن، ثم نظر في صلاح البلدة لمعنى التسكين والعمارة لجوانبها والتوطين، والتفتت[1] أحوال الموحدين المحصورين بالقصبة في ضيقتهم وجبر الله عليهم أموالهم التي انتهبت، ويسر الأمر [62] العزيز إليهم من الخيرات والاعطيات ما استكثرت لديهم واستغربت.

ثم عزم الرأي السديد بعد هذه السياسة، وإكمال فتح الله للرياسة، أن يتحرك العسكر المنصور لحصار ابن همشك بمدينة جيان، وأن يستأصل في جميع جنباته من فيها من أهل النفاق والعصيان، وأن يخص هو بالنكاية والانتقام منه بأوفى الخسران، فنزل الموحدون أعانهم الله بساحة قريته المذكورة الظالم أهلها، السابق أخذها بما اقتضاه جهله وجهلها، فلاذ هو ومن فيها من الأشقياء والكفار بالجدران والاطام، وأصبحوا بأسوارهم راضين بحالة الضيم والاهتضام، ظانين بأنهم مانعتهم حصونهم وانى لهم من الامتناع من أمر الله والاعتصام. فانتسف كل ما وجد حواليها من الأموال، وخرب عامرها حتى رجع قفراً تندبه البُوم بسوء الأحوال، وعاين الخاسر الغادر ما عاين من سورة الأبطال، ودام بذلك إلى أن وصل الأمر العزيز باستيطان قرطبة واليها بالارتحال، على ما أذكره[2].

= المراكشي: المعجب طبعة القاهرة ص 291.
الاستقصا ـ الجزء 2. طبعة دار الكتاب بالبيضاء ص 212.

(1) كذا في الأصل ويظهر أن الصواب التأمت.

(2) يعني في صفحة 64.

واتصل في أثر هذا الفتح العظيم نظر الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنه لمدينة غرناطة وقصبتها سنام الأندلس، فملأ مخازنها في القصبة بها بالقمح والشعير والملح وآلات الحرب من الرماح والدرق والسيوف والقسي والسهام والترسة بما ابهت الناظرين، وقصر عن وصف الواصفين، وأوصل [63] أمره العزيز ذلك كله إليها من العدوة في المراكب في البحر إلى «حصن المنكب[1]» وانتقل جميع ذلك من المنكب إلى غرناطة وتحصل في قصبتها مَخْزوناً، فحييت بعد موتها بهذا النظر الجميل والحزم الموصول، والنيل المبذول، واستنفذ مَن كان فيها من الموحدين من علة الحصار، وبعد الانتصار، وأجزل لهم الزيادة في بركاتهم، والنماء لهم في مواساتهم وأنعم عليهم بالإحسان إحساناً، ووالاهم رفقاً وحناناً، ورتَّب في غرناطة جماعة من الأجناد الأندلسيين، الموثوقين في التوحيد مع الموحدين، فدافعوا عنها مَن جاورهم من الأعداء حتى عاد قفرُها عامراً، وخرابها ساكناً آمناً، أمراً ظاهراً متظاهراً، فقطع ابن مردنيش امله عنها وكل ثائر، متقدم أو متأخر في الفتنة من ظالم جائر، وبقيت في أيدي الموحدين، أعانهم الله على الطاعة وصحة اليقين، بعد عظيم الفتنة لأهلها البائسين، واتصل إخزان المخازن المذكورة من جميع الأقوات فيها من عام سبعة وخمسين إلى عام ثلثة وستين وخمس مائة حتى فني وقسم على الموحدين في مواساتهم، والإحسان اليهم في اعطياتهم. وهذه المدينة ذكر ابن حيان[2] في خبرها أنها لم يملكها أحد من

(1) حصن المنكب (Almunêcar) مرسى صيفي يقع غربي ألمرية وشرقي مالقة، له نهر يريق في البحر المتوسط، وبه نزل الامام عبد الرحمن بن معاوية عند دخوله الأندلس وذلك في ربيع الأول من سنة 138 . . . الحميري: الروض المعطار ص 186. Huici: P. 204.

(2) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي سلطان المؤرخين في عصره، وعمدة جل الذين كتبوا عن الأندلس من المتقدمين، ولد سنة 377 وتوفي سنة 469، من كتبه المقتبس، في تاريخ الأندلس يقع في عشر مجلدات ضاع معظمها ولم يبق إلا بعض القطع. نشر منها الأستاذ ميلشور انطونية قسما عثر عليه في البودليان، ويوجد منها في مكتبة جامعة القرويين قطعة تتعلق بتاريخ الأندلس في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وابنه الأمير محمد، يعمل الآن على نشرها وتحقيقها الدكتور مكي والدكتور حسين مؤنس. وهناك منه قطعة ثالثة تتعلق بتاريخ الأندلس في=

الصنف الأندلسي من آخر دولة آل محمد بن أبي عامر إلا الصنف العدوي[1].

وفي أثر هذا الفتح أمر امير المؤمنين رضي الله عنه أن يكون استقرار [64] الأمر بمدينة قرطبة.

ذكر وصول الأمر العزيز باستيطان السيدين الأجلين المذكورين قرطبة واستقرار الأوامر والعساكر بها، والاعتناء بجانبها

ووصلهم الأمر العزيز بسكنى قرطبة، وهم بظاهر جيان محاصرين بها على ما ذكرته، وأن تكون مقراً للأمر بالأندلس كفعل بني أمية بها في قديم حقبها، إذ هي موسطة الأندلس، وأن تكون اشغال الأعمال مستقرة فيها، صادرة إلى النواحي من ناحيتها، فوصلها أبو إسحاق براز بن محمد المسوفي[2] بالأمر العزيز واستقر داخلها واستدعى الكتاب والمشارف من اشبيلية وأنظارها، فبادر إليه ابو القاسم بن عساكر[3]، وأبو بكر المراني[4]، وأبو

= عهد الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر يقوم على نشرها الأستاذ غارسية غوميس. هذا وقد عثر مؤخراً على قطعة فريدة يترجح أنها منه تبتدىء من سنة 299 إلى سنة 330 في خزانة المغفور له جلالة محمد الخامس طيّب الله ثراه، ومن المعروف أن جلالة الحسن الثاني أصدر أمره الكريم بفهرسة الخزانة المحمدية والعمل على نشر الفريد منها... ومن كتبه كذلك المتين. ويظهر أن نقله هنا من كتابه «في أخبار الدولة العامرية».

الحميدي: جذوة المقتبس. نشر ابن تاويت الطنجي رقم 397. ابن الابار: التكملة، رقم 148. الحلة السيراء ص 119 - 149 - 154. ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص 80 - 84. دائرة المعارف الاسلامية أول ص 146.

تاريخ الفكر الأندلسي ـ ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص 208 - 209.

(1) العدوى نسبة إلى العدوة أي المغرب الواقع على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط.

(2) انظر ص 85 تعليق رقم 4.

(3) أحد الكتاب المبرزين في البلاط الموحدي ممن كان يُعين أحياناً لمحاسبة المتصرفين في أموال المخزن انظر ص 311.

(4) لم نقف على ذكر لأبي بكر هذا في غير هذه المرة.

بكر الحصار[1]، ومشوا إليه راحلين عن اشبيلية، ومعهم من الكتّاب جماعة كبيرة مشهورة من أعيان اشبيلية وأعيان جهاتها، وكنت[2] في جملة من كتب من الكتاب، وعين للاشتغال بذلك الباب، فاستعفيت وقنعت، والتزم غيري ممن كتب لتقييد أموال المخزن بها وبأنظارها وبالبلاد المفتتحة المرتجعة من أيدي المنافقين، ولضم الزكوات والفرائض المفروضات، فقربهم عند وصولهم إليه وأدناهم وأنزلهم في الديار للسكنى وسنّى لهم الخيرات [65] وأسناهم، ووالاهم بالمبرات واستعملهم على الأشغال وولّاهم، وعمرت قرطبة بعد قفزها، وأمِنَت من كربها بالفتنة وذعرها، وتلاحق الناس والكتاب لهذه الآمال، وشغلوا بالتصرف في الأعمال، وأظهر أبو اسحاق عادته في النصح لجميع المخازن، في داخل قرطبة وخارجها وجميع الأقطار التي للموحدين والمواطن، واستعمل على اشبيلية من أصحابه من وثقه، واختصه وصدقه، ولم يزل في عمله من النصح، وشغله البين الوضوح كالصبح، مدة حياته إلى أن توفي بقرطبة بعد ذلك في عام تسعة وخمسين وخمس مائة من علة النقرس[3] المزمنة به.

فلنرجع إلى ذكر قدوم السيدين على قرطبة:

وقدم السيدان الأجلان أبو يعقوب وأبو سعيد ابنا أمير المؤمنين رضي الله

(1) الحصار هو أبو بكر محمد بن علي الحصار الاشبيلي توفي بمراكش سنة 579.
ابن عذاري ص 122 ـ المغرب في حلى المغرب، نشر الدكتور شوقي ضيف 1 ص 279.

(2) يقدم ابن صاحب الصلاة نفسه هنا لأول مرة على أنه كان في عداد الكتاب وان كان قد استعفى من الوظيف أول الأمر... (اقرأ صفحة 65 كذلك).

(3) النقرس: ورم يحدث في مفاصل اليدين والقدمين، وفي الابهام منهما بصفة خاصة، يقولون: إنه مرض الملوك ويعزونه للافراط في المآكل، وهو الذي يعرف بالفرنسية باسم لاكوت La Goutte
وكتب أيضاً أبو مروان عبد الملك بن زهر بصدد هذا الداء يقول: «... ويحدث في الاقدام النقرس، وذلك ورم يحدث في القدمين أو إحداهما وحق ذلك لهما فإنهما يطبعهما أسفل موضعاً من سائر أعضاء اليدين.. وأكثر ما يكون النقرس ممن التزم المشي من غير اعتياد..» كتاب التيسير في المداواة والتدبير. لأبي مروان عبد الملك بن زهر. تحقيق ميشال خوري نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. سنة 1983 ص 375-376.

عنهم على قرطبة من غزوتهم المنصورة ضحوة يوم الأحد الثاني عشر من شوال سنة سبع وخمسين وخمس مائة، ومعهم الشيخ المرحوم أبو يعقوب على الأمر الكريم الذي ذكرته، فخرج جميع أهل قرطبة إلى لقائهم وكنت أحد من خرج للتبرك بهم مع وفد الكتاب أهل اشبيلية الذين ذكرتهم إلى باب القنطرة[1] المتصل بالفحص إلى طريق جيان وأعيان قرطبة الباقون منهم في الفتنة مع أهل اشبيلية على أقدامهم بادرين إليهم مع النظارة من أهل قرطبة فكان عدد أهل [66] قرطبة اثنين وثمانين رجلاً لجلائهم من الفتنة عن البلاد، وبما كان حل ببلدتهم من القفر بغورها والنّجاد، وقد ظهر على هيأتهم وصورهم البُؤس، واستمر على بلدتهم وعليهم من الفتنة الدّروس، قد لبسوا من الثياب اطمارا، واستبشروا على حالهم بذلك اللقاء، ودعوا إلى الله أن يزيدهم في عمرهم أعماراً، فلقد ذاقت قرطبة وأهلها من بؤس هذه الفتنة الأندلسية، ما لم يذقه أحد من أوائلهم في الفتنة الحمودية[2]، بإلحاح ابن همشك وقساوته القصية العجمية، فسبحان من أحياهم بعد ذلك من مماتهم، وأعادهم بالنصر والعدل الإمامي إلى حياتهم، واستقر السيدان والشيخ أبو يعقوب بقرطبة فأمروا ببنيان قصورها، وعمارتها وحماية ثغورها، وجلبوا البنائين والعرفاء والفعلة لبنيان القصور والدور من خرابها، واعادتها على ترفيع قبابها، وصرف حالتها من مشيبها إلى شبابها، وتفرد العريف أحمد بن باسه[3] إلى ذلك، وجدد ما وَهَى هنالك، وانجلب أهلها إليها في أقرب مدة، وتجددت آمالهم وصلحت أحوالهم أحسن جدة.

ثم انصرف الشيخ المرحوم أبو يعقوب بمن أمر له من العسكر المؤيد من الموحدين والمجاهدين والعرب الجائزين، إلى حضرة أمير المؤمنين،

(1) راجع التعليق رقم 3 صفحة 134

(2) نسبة إلى بني حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب، وحول دولهم.
انظر ابن الخطيب في أعمال الاعلام ص 128-137.

(3) انظر التعليق رقم 1 ص 86 والصفحة 322 من نص الكتاب.

لشرح الفتح والظفر [67] المكين، وأقام السيدان بباقي الموحدين من العسكر لالتزام الأمور، وصلاح الجمهور، فوصلتهم من الأقطار الوفود بالتهاني، واتصلت بهم السعود والأماني، وأصبحت بهم قرطبة بعد بؤسها مطمحاً للهمم، ومسرَحاً لآمال الأمم، وتراجع أهل قرطبة من البلاد إلى موطنهم، وتسامح الشاسع والقريب منهم بالفتح الذي كان فعادوا إلى مسكنهم، وأحسن السيدان الاجلان للطلبة من أهل قرطبة المذكورة فأثبتوا أسماءهم في زمام العسكرية للمواساة، ورتبوا الأجناد وجلبوهم من كل بلد للسكنى فيها وأظهروا الاغتباط بنواحيها، فظهر العمران، واتصل الأمن وسكنت الأوطان، وكأن الفتنة لم تكن اذ حلَّ بدارها النصر والأمان.

وأقام السيد الأعلى أبو يعقوب بها وأخوه أبو سعيد معه فيها من تاريخ قدومهما المذكور إلى أول المحرم من عام ثمانية وخمسين وخمس مائة ووصله الاستدعاء السعيد من الحضرة الجلية بالوصول إليها فتحرك من قرطبة وأعمل طريقه على اشبيلية ووصلها يوم الأربعاء العاشر من شهر المحرم من عام ثمانية وخمسين المؤرخ ولم يقم بإشبيلية إلا خمسة أيام ووصل سيره إلى الحضرة على ما وعده الله تعالى أن يكون الأمر أمره ويزيل غيره بخلع المخلوع[1] واتفاق [68] الأمر العلي والموحدين أعزهم الله على إمامته، وإصفاقهم على تصويب خلافته، حسبما أذكر ذلك بعد[2] هذا. وأقام السيد أبو سعيد بقرطبة على الحالة المأمور بها فزادها تمصيراً، ومهّدها تمهيداً وتبشيراً، ومشى الأوامر العلية بالتسكين والتوطين، والاحسان والتأمين، حسب ما كان مع أخيه من اجتماعهما. والنظر الموفق من تباعهما، ونيل الناس من فضلهما وكرم طباعهما، وانضافت اشبيلية ونظرها في الأشغال السلطانية من الولاية والعزل، والتقديم والتأخير في العقد والحل، إلى نظر السيد الأجل بقرطبة بمن فيها.

(1) يشير لأخيه محمد بن عبد المؤمن وسيمر بنا قريباً انه أسقط عن الخلافة من قبل والده لما لوحظ عليه من استهتار بمبادىء الدين.

(2) صفحة 79-80.

وكذلك أشغال المخزن أنماه الله إلى نظر أبي اسحاق براز بن محمد المسوفي : فكان باشبيلية على شغل الموحدين أعزهم الله أبو داود يلول بن جَلداسن[1] وكان على شغل المخزن بها محمد بن المعلم الإيلاني[2] يجتمعان كل غدوة على المصالح، ثم يفترقان إلى النصائح، داما على هذا من تاريخ مشي السيد الأعلى أبي يعقوب إلى الحضرة بالاستدعاء مدة إلى أن كانت وفاة الخليفة الرضي خليفة المهدي رضي الله عنهما، وكان الاتفاق والاصفاق بولاية العهد الكريم والمبايعة لأمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه فأفرد أمره العالي أبا عبد الله محمد بن أبي [69] سعيد المعروف بابن المعلم الايلاني بإشراف الأعمال على إشبيلية وبقي أبو داود على نظرة في الأشغال، وأضاف إليه النظر في الاسهام، فداما على ذلك إلى وفاتهما على ما أذكره ان شاء الله تعالى[3]. وكان من حديث محمد بن أبي سعيد بن المعلم المذكور ما أذكره أيضاً إن شاء الله تعالى[4]، ووفد الشعراء لتهنئة سيدنا أمير المؤمنين رضي الله عنه على هذا الفتح الذي أحيى جزيرة الأندلس، ورفع عنها الفتنة المهلكة لها بالنُّجُس، فقال في ذلك الأستاذ أبو الوليد اسماعيل بن عمر المعروف بالشواش الشبلي[5] وأنشدها بنفسه : (الكامل)

---

(1) بفتح الجيم وضم السين، هكذا ضبطت هذه الأسرة في بعض معاجم الموحدين، وقد ورد في بحث للأستاذ نارسي أن آيت جلداسن (Jellidasen) قبيلة بربرية من فخذة آيت ورايين التي تقع جنوب مدينة تازة المغربية. .Hes. 1929 T IX 1 Trim وقد توفي أبو داود هذا سنة 580. المن بالامامة ص 336 - 337. ابن عذاري ص 104. ابن الزيات: التشوف ص 251.

(2) أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد الايلاني المعروف بابن المعلم، وقد استمر بقية حياة عبد المؤمن ومعظم أيام أبي يعقوب مشرفاً على الأعمال باشبيلية إلى أن كانت سنة 573 فانتقم منه ولما انتقد عليه من أخبار شنيعة وأحوال فظيعة، وأمر بسجنه وصودرت أمواله وضربت بعد محنةٍ طويلة عنقه. المن بالامامة ص310 - 311 - 320 ابن عذاري ص 104.

(3) هذا مما كان عليه أن يذكره في السفر الثالث وانظر مع هذا ص 320 فيما يتعلق بابن المعلم. وص 337 فيما يتعلق بجلداسن.

(4) في السفر الثالث.

(5) سماه السيوطي محمداً، وقال عنه ابن الزبير: إنه كان أستاذاً مجيداً في إقراء القرآن والعربية والأدب، وإنه كان شاعراً كاتباً، ونقل أن له كتاباً يحمل اسم (ثروة المريدين بالأندلس) بتقديم=

عَزماتُ منصور العزائم غالب ... ضمنتْ فتُوح مشارقٍ ومغَارِب
يا سعدَ دين الله أفلح حزبُه ... وهَوَتْ عِداه في عَذابٍ واصِبِ
أولى لأشياع الغَواية والرَّدى ... ووراءَ نارِ الحقِّ أنْجحُ طالِب
يمْضِي لأمْر الله غير معرِّجٍ ... متوجّهاً بالنّصر ضرْبة لازبِ
عادَات مخترم العُدَاة مظفّرٍ ... مغتال كل مُعَانِدٍ ومحارِبِ
امنت كتائبهُ مَكيداتِ العِدَى ... واسْتصحَبتْ للنَّصر الزَم صاحبِ
واستنجدَتْ بنجاحِه وَبِيُمْنِه ... فقطعْن عرض البيدِ غيْر لواغِبِ
[70] بسوابقٍ كبوارقٍ، ومواكِبٍ ... كَكَواكبٍ، وجنائبٍ كخبائبِ[1]
كاثرْن أعداد الحَصَى وتضاءلَتْ ... منها فِساحُ أجارعٍ وأخَاشِبِ[2]
طلعَتْ على الأعْداء سحْباً للرَّدَى ... سالتْ دَماً بأباطحٍ ومَذَانبِ
تلكَ المَخايلُ أغْدَقَت وكافَةً ... فحَذَارِ من زَجل الرَّواعد صَائب
تلك السُّيُول تغولُ من تَسْطُو بهِ ... فاطلُبْ أماناً من هزبرٍ غاضِب
خُلُجٌ من البَحْرِ الطّموح هوتْ بهم ... جيّاشةً بزواجرٍ وغَوارب
يوم العروبة أعْربت فتكاتُه ... في الكُفْر عن فتْحٍ مبينٍ راتب
وتيقَّن الأعْداءُ أن حِماهُم ... من بَعْدِ هذا اليوم نهبُ النّاهب!
ما بَعْدَها إلا مقادَةُ صاغِرٍ ... يلقى يداً، أو تَوْبةٌ من تائِب
من لم تبصِّرْهُ بصيرةُ مهتَدٍ ... فليهْدِه للرُّشْد عَقْل تَجارِبِ
الحقُّ عنْدْ إمامِ حق مجْتَبَى ... يهْدي الأنام إلى الطَّريق اللاَّحِب

= الراء على الواو حتى لا يلتبس بثورة المريدين لابن صاحب الصلاة وقد توفي بمراكش في شوال سنة 569. السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، طبعة 1326 ص 86. العباس ابن ابراهيم : الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام جـ 3 ص 24.

(1) الجنائب: ج جنيبة: الناقة التي تحمل الميرة؛ قال الحسن بن مزرد:

رخو الحبال مائل الحقائب ... ركابه في الحي كالجنائب

والخبائب ج خبيبة: الخط من السحاب أو الرمل، يشبه قطار هذه النوق بالطريقة من السحاب أو الرمل. كذا أقدر.

(2) الاجارع ج أجرع: الأرض المستوية من الرمل، والأخاشب من الجبال: الغليظة الخشنة.

يقضي فيُمْضِي كلَّ حقٍ واجب   إلا إذا أعطَى ففوْقَ الوَاجِب
يغني ويُغني راضِياً أو ساطياً   ويَفي ببَذْلِ مواهبٍ ونوائِبِ
ضمن الاله لكفّه ولسيفه   رزقَ الأنيس وكلِّ وحْش سَاغِب
لو تعلمُ الوحشُ العَوادِي بأسَهُ   لم تستعِدْ لصيدِها بمخالِب
تحوي نداهُ الطّيرُ في وُكناتِها   فترِنُّ تَرْجيعاً بشكرٍ دائبِ
عرفتْ عوارفَه فتشكر فضْلَهُ   وتدين إعظاماً بحُكْمِ الواجِب
فتمرُّ يُمْناً بالرضا لمُسالم   وتمرُّ برْحاً بالرَّدى لمُحَارِب
نُصرت كتائبه بمنْصُور اللِّوَا   غلّاب كل قريعِ جيْشٍ غالِب
[71] تلقاهُ آسادُ الوَغى وكماتُها   فكأنما يلقاهُ سِرْبُ كَواعِب
واظنُّ جيْشَ اللّيل خَافَ مَغاره   عِنْدَ الصّباح فجدَّ عزْمَة هارب
أمْضى إلى الشّرق القصّي عزيمةً   نالتْ قِيادَ أعاجمٍ وأعَارِب
تبْدُو بها شمسُ النّهار سقيمةً   تشْكُو الضّنى منها بلَوْنٍ شاحِب
وكأنَّ جُنْحَ اللّيْل حَاذَرَ هَوْلَها   ولذاك مَا أبْدَى ذوائبَ شَائِب
عَجِب الوَرَى من شَامخٍ سامي الذُّرَى
قَلِق المطايا مُدْلجٍ أو سَارب
تدعوه داعِيةُ السّعادةِ والعُلَى   فيخِفُّ منه وقارُ طَودٍ راسِب
في اللهِ أعْملها على بُعْد المَدَى   فجزَعْنَ غوْلَ مَفاوزٍ وسَباسِب
إن أعوزت وِرْداً بقَفْزٍ مُمْحِلٍ   وردَتْ شمائل منه غيْرَ نواضِب
أو اخلفتْها مزْنَةٌ بتنوفَةٍ   فاضَتْ أنامِلُه بقَطْرٍ ساكِب
عش يا أميرَ المُؤمنينَ بِغبْطةٍ   وَوَقاكَ سعْدُك كلَّ خَطْبٍ نائب
واهْنأ ببُشْرَى طالعتْك سُعُودها   تجْلُو ظلامَ حَنادِسٍ وغَياهِب

وله فيه تهنئةٌ بعيد الفطر بعد الوقيعة المذكورة وفي عامها: (الوافر)

بأمْرِكَ أسْمع الدّاعي المُهيب   وسعْدِكَ يُسّرَ الفَتْحُ القَريب
وملكُكَ مهّد الدُّنيا فقرَّتْ   وقَدْ قلِقَتْ بمضجَعِها الجُنُوب
وهذَيكَ ملْكَ الأهواء طوْعاً   فحنّتْ أنفسٌ وصَبَتْ قُلُوب

وعدْ لك ألف الأشتات حتّى   توادَّ الذيبُ والرَّشأ الرَّبيب!
[72] وحلمُك أرْجَحَ الشُّمَّ الرَّواسِي   فمنْهُ في شوامِخها رُسُوب
ورَوْحُك وارتياحُكَ للمعَالي   تمايَلَ عنْهما الغُصْنُ الرَّطيب
وربْعُك للعُفاة إذا المُّوا   كصَدْرِك، إنّه أبداً رحيب!
تفادتْ من سماحَتِك العَطايَا   وعاذَتْ من بسَالِتك الحُرُوب
قتلتَ صُروفَها قسْراً فمنْهَا   على شَفَق الدُّجا عَلَقٌ صبِيب
وخافتْ مِنك قاصِيةُ الذّرَاري   فيَلزَمُ قلبَها ذاكَ الوجِيبُ
وُجودُك في الوَرَى شيءٌ عجيبٌ   يُرجِّمُ ظنَّه فيه اللّبيبُ
ومَا فِي أمْرِكَ الصّدق امتِرَاءٌ   ولاكنّي بخُلْفِك أستَريب!
أميرَ المُؤمنينَ جزتْكَ عنّا   جوازي الخَيْرِ ما جَنبتْ جَنُوب
ألا لله منك إمامُ صِدْقٍ   تقدَّس لا يُلِيمُ ولا يَحُوب
إمَامِ الدّينِ والدُّنيا بجِدٍّ   وجدّ لا يَميلُ ولا يَخِيب
بِهِ رُعبتْ رعايلها، وكانَتْ   سُدىً وأريحَ سارحُها الغَريب
وصحَّ به الزمانُ فكلُّ داءٍ   عَياءٍ عالهُ منْهُ طَبِيب
ودَلَّ الحائرين عَلَى نَداهُ   فكُلُّ مضلَّةٍ لقَمٌ(1) رَكُوب
وعمَّ فذُو التّباعُد والتّداني   سَواءٌ والحزُونة والسُّهُوب
مفيدٌ أو مبيدٌ مسْتمِرٌ   لحالَيْه كُسُوبٌ أو نَهُوب
تُنافِسُ جودَه السُّحْبُ الغَوادي   فيبدُو فوْقَ أوجُهِها قُطُوب
ويحسُد نورَه بدرُ الدّياجي   فتَعرُوه الضّمانَةُ والشُّحُوب
وكيْفَ وبيْنهم قُرْبَى تُراعَى   وكلُّهم حليفٌ أو نَسيب
[73] امينَ الله قد وفّيتَ عدْلا   وفضلاً، والإلاهُ هو المُثيب
وقدْ وَهَبَ الرّضا لكُم، وايُّ   أراه إلى إرادتكُم يُجيب
دعوْتَ إلى الإلاه ففاز فوْزاً   عظيماً سامعٌ لك مُستَجيب

(1) اللقم: وسط الطريق وواضحه، أي أن الأمكنة التي يضل فيها المرء تمسي بفضل نداه واضحة مسلوكة.

وعلَّمتَ الجَهُول فليْسَ إلَّا   عَليمٌ راشِدٌ فطِن لبيبُ
فاوْسعت الأنام هُدىً يُريهم   معالمَ دِينهِم ونَدىً يَصُوب
فانتُمْ للجَميع ابٌ عَطُوفٌ   وكلٌّ في كفالتكُمْ رَبِيبُ
تقضي شَهْرَ صوْمك مستديماً   وِصَالك والمقامُ له حَبِيب
وفَارق غيْر مختار، فحَرُّ   الهجيرةِ[1] من جوانحهِ لهِيبُ
وبشِّر أنْ يُعاودَكم، فعَنْهُ   تبسَّمَ للضُّحَى ثغرٌ شَنِيب
ووافَى العِيدُ والأيامُ عيدٌ   يروقُ بكُم ودُنياكم عَرُوب
وانتُم للسَّماحةِ بحْرُ جدْوَى   يفيضُ ولا يلمُّ بِهِ نُضُوب
ليهنِ الدهرَ والأعيادَ بُقْيَا   زمانِكَ إنَّه الزَّمن الخصيب
ستصحبُها مُدَاومةٌ بنَصْرٍ   عزيزٍ ضمنُه عمْرٌ قشِيب
وتَبْقَى مثلَ مَا تَبْقَى اللَّيَالي   وقد شمطَتْ ولاحَ بِها المَشِيب
فَدَاك سِواك أن تُمْنَى بخَطْبٍ   وان تَحْتَلَّ شعبَكم شُعُوب
ترامتْ بي إليك نَوَى ندوفٌ   ورَأيي في اعتمادِكم مُصِيبُ
وما لي أن يقال قصِيٌّ دار   نأى عنها وعرْبي غَرِيب!
وعدتُ وعَوْدَتي أولى وأجدى   وأحمد في حياةٍ استطيب
وسالمني زمانِي في ذُرَاكم   وقد سلفَتْ لهُ عندي ذُنُوب
[74] فاعتبَ خائفاً ممَّا جَناهُ   واقْسَم أنَّه منها يَتُوبُ
فعَفْواً أيُّها المَوْلى وصَفْحاً   فكم جَانٍ ومجْتَرِمٍ يُنِيبُ

---

(1) كان رمضان 557 يوافق غشت 1162 وهو وقت حر كما يشير إلى ذلك الشعر.

ذكر انصراف سيدنا الخليفة أمير المؤمنين - رضي الله عنه - من رباط الفتح بسلى الى حضرته مراكش بعد الفتح في هزيمة ابن مردنيش وابن همشك والنصارى اهلكهم الله على غرناطة والظفر بهم.

قال الراوية: وان أمير المؤمنين رضي الله عنه نظر لله تعالى وجدد عزمه وحزمه وصفى سره لربه، في بعده وفي قربه، في غزو الروم بجزيرة الأندلس واضمر غزوة عظمى براً وبحراً ليلقى الله بها يوم القيامة بالفوز لديه والرجا، فأمر بانشاء القطائع في سواحل العدوة والأندلس فصنع منها زهاء مائتي[1] قطعة، أعد منها في مرسى المعمورة[2] بحلق البحر على وادي سبو[3] بمقربة سلا مائة وعشرين قطعة[4]، وقفت عليها وعدتها بالمرسى المذكور، وأعد باقي العدد الذي ذكرته في أرياف العدوة - والأندلس. وأمر بكتب الرجال

---

(1) شاهد القرن الثاني عشر ثلاث انتفاضات في ثلاثة من مراكز القوى البحرية في عالم البحر المتوسط فقد استجمع المسلمون في الغرب قواهم من جديد وأنشأوا دولة أفريقية أندلسية متحدة هي دولة المرابطين ثم دولة الموحدين الذين أعادت أفريقية في أيامهم بناء الأساطيل الهامة. أرشيبالويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال، طبعة القاهرة 1960 ص 387-399.

(2) المعمورة يقصد بها المدينة التي تحمل اليوم اسم المهدية على الضفة اليسرى لمصب وادي سبو شمال سلا على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً منها على خط مستقيم، ولم يكن هناك وجود لاسم «المهدية» إلا أيام السلطان اسماعيل سنة 1092 م(1681)عندما حاصر المرسى وضيق على جيش الاسبان المحتل، فقد خرج راهبها مستسلماً وبيده مفاتيح المدينة، جاء بها هدية للمولى إسماعيل فأمنه ودخل المدينة وسماها بالمهدية.

Caille: La ville de Rabat: 63 Coindreau: la casbah de Mehdia.

عبد الهادي التازي: مهدية المولى إسماعيل «مجلة المغرب» مايه 1963 ص 7-9.

(3) وادي سبو: منبعه من الأطلس المتوسط، طوله 600 كلم يتراوح عرضه ما بين 150 إلى 300 ميتر ويصب في المحيط بالمعمورة «المهدية الحالية» قرب مدينة القنيطرة.

(4) بعض المصادر تذكر أن عدد القطع المنشأة أربعمائة قطعة: 120 في المعموزة، وبالريف 100 وببلاد أفريقية 100 وببلاد الأندلس 80.

ابن أبي زرع: الأنيس، جزء ثان ص 164 - الناصري، الاستقصا جزء ثان ص 128.

والرؤساء الأبطال لعِمارتها، والقيام بحمايتها والنظر في آلاتها، وأعدَّ من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة [75] المذكورة ما عاينته مكدَّسا كأمثال الجبال، بما لم يتقدم لملك قبله ولا سمعنا به في جيل من الأجيال، بقي في ذلك الموضع معداً من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنين وستين وخمس مائة، حتى فني في أكداسه وعاد تراباً ورماداً باحتراقه بعضه في بعض وإفساد الزمان له فساداً، ونظر رضي الله عنه في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وافريقية وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة، والرماح الطوال على أجمل الهيئات، والدروع والبيضات والترسة إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس[1]ما استغربته الأذهان ولا تقدم بمثله زمان، وقسم ذلك كلَّه على الموحدين أعانهم الله على أشياخهم وعامتهم وعلى العرب أجمعين بجميع قبائلهم الحاضرين وعلى الأجناد المرسومين المعينين، وكان له رضي الله عنه من النظر الحافل لهذه الغزوة ما لم يتقدم له قبل ولا رئي له مثل، وحرض الناس ووعظهم وذكر ما لهم من جهاد الروم من الأجر عند الله تعالى، وأقام بمراكش ناظراً معداً في الذي وصفته من هذا الاستعداد إلى الجهاد إلى أول عام ثمانية وخمسين المؤرخ. وأخذ في الحركة في إلى الزيارة.

(1) البرنس: كساء يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصلاً به وكانت مدينة نول في القديم مركزاً مقصوداً لاقتناء البرانس. الإدريسي، نزهة المشتاق ص 60.

DOZY: Sup: T. I Page 79

[76] ذكر حركة امير المؤمنين رضي الله عنه من مراكش الى زيارة قبر المهدي رضي الله عنه بتينملل[1] ووداعه، لما يؤمله من زماعه من غزو النصارى اهلكهم الله.

قال الراوية: وتحرك أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى الزيارة المذكورة في فصل الشتاء والبرد، واتصال الأمطار بالأنواء والجهد، وقد انبسط على الأرض من جهات الطول والعرض من الصقيع ما ملأ الاسقاع، وغمر البقيع والبقاع، والناس معهم قد أصابهم الجهد والبرد، فلما وصل إلى أحد الأودية[2] التي بين حصن كيك[3] وبين مدينة تنملّل حرسها الله وجده حاملاً قد امتلأ من ضفَّتيه وعبر به بالماء، وازلعبَّ فيه السيل الجُحَاف الراعب من الثَّلْج بالجبال ومطَر السماء، فرأى رضي الله عنه أن الإقامة عليه إلى أن نخوض تصعُب وتبعد، وربما جادت السماء وتسكب. فاقتحم موضع المخاضة[4]بدليلٍ في ذلك الوادي. فطلع معه الماء في سرجه، وبل ثيابه وآذاه ببرده وثلجه[5]، وأجاز الناس بعده على اقتحام، وترادف وزحام، ونالهم من

(1) تينملل، وقد تكتب هكذا تينمل أو تانمللت، وقد رسمها أحياناً ابن صاحب الصلاة كلمتين: تين ملل وهي فعلاً مؤلفة بالبربرية من تين، بمعنى ذات وايمل بمعنى الحواجز «الصرايم» التي توضع في سفوح الجبال لجعلها صالحة للزراعة والسقي، وهو الجبل الذي كان مهد دولة الموحدين أول الأمر، وبها بنى الإمام داره ومسجده، ومدنها ثم حصنها الخليفة حتى غدت أمنع حصن، هذا إلى وعورة مسالكها الأمر الذي يجعل الوصول إليها من أصعب المحاولات. الادريسي ص 64 ـ الاستبصار 208 ـ الاستقصا، ثان ص 78.

Les Guides Bleus 1925 page 156 - Basset et Terrasse: Tinmel Hespéris 1924 page15.

محمد الفاسي مجلة البينة عدد ماية سنة 1962 ص 50.

(2) يقصد وادي نفيس الذي يصب في وادي تانسيفت، الاستبصار ص 209.

(3) حصن كيك: يقع بين سكتانة وهنتانة.

البيذق، أخبار المهدي خرائط بروفنصال. (Provençal).

(4) المخاضة من الوادي المكان الذي يخاض أي يعبر منه، ومن المعلوم أنه توجد في الأودية أمكنة لا سبيل لاجتيازها نظراً لبعد غورها بينما توجد أمكنة يرتفع سطحه فيها فتلك هي المخاضات.

(5) كان الوقت أول عام 558 وهو يوافق أول يناير 1163 فالوقت وقت شتاء وثلج.

البلل كثير، ثم نزل رضي الله عنه بالمحلّة في فسحة من الأرض، وأوقَدُوا فيها النيرانَ للتَّدفي، والتَّداوي بما يشفي. ثم اقلع ووصل المنسك الكريم، وزار وودع [77] وانصرف وقد نال الأجر العظيم، وعند الانصراف منها في الطريق ظهر من جرحة محمد المخلوع بما وجب عليه في اثر ذلك الخلع، وذهب في جانبه الصدع من شرب الخمر المحرمة وظهور السكر عليه[1]، وذلك انه تقياها على ثيابه وأطنابه وسرجه وهو راكب على فرسه في المحلة على مرأى من عظماء الموحدين، وأشياخهم والعالم من المؤمنين الزائرين، فصح عند الخليفة أبيه نكره، وتخليطه وسكره. فأسقط[2] هو بفعله من الأمر نفسه، وكسف بالنهار شمسه، على ما أذكره بعد هذا. ولما رجع أمير المؤمنين رضي الله عنه أنفذ العزم في غزوته على نيته.

(1) لا ننسى أن الوزير عبد السلام الكومي كان وجه تهمة في هذا الصدد لبعض أولاد عبد المؤمن. راجع صفحة 41 من المن بالإمامة. وانظر ابن عذاري ص 44.

(2) يلوح من نص ابن صاحب الصلاة بوضوح أن خلع محمد هذا كان في حياة عبد المؤمن نظراً لما ثبت عليه من استهتار وانحلال، الأمر الذي أظهر للخليفة من الآن عجز ولي العهد عن تحمل الأمانة، وهذا ما في القرطاس وابن الأثير، أما ابن خلكان والمراكشي فيذكرون أن الخلع لمحمد كان بعد وفاة والده، فبعد أن تربع على كرسي الامارة ظهرت عليه أشياء لا تليق بأولياء الأمر كتناول الخمور، وفي الرواة من نسب إليه أنه كان مصاباً بضرب من الجذام، ولذلك فان مدة ملكه استمرت خمسة وأربعين يوماً ولكنها لم تزد على ذلك نظراً لمعارضة أخويه أبي يعقوب وأبي حفص. .

المراكشي: المعجب تصحيح سعيد العريان 1949 ص 236 ـ ابن أبي زرع جزء ثان 167، تعليق رقم 1 أشباخ: تاريخ الأندلس ص 313 ـ الناصري الاستقصا ثان 128.

ذكر حركته الى رباط الفتح بسلا على النية الصادقة من الغزو والجهاد، والنظر والاستعداد

خرج أمير المؤمنين رضي الله عنه من مراكش إلى ما ذكرته يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول بموافقة[2] التاسع عشر من شهر فبراير العجمي من عام ثمانية وخمسين وخمس مائة واتصل سيره وعزمه، وأمره العزيز وحكمه، على عادته المعلومة الكريمة من المشي الرفيق، ومراحله إلى منازله المبنية في الطريق[3]، والرفق المعوَّد [78] منه لكلّ فريق، والعساكر الميمونة المتقدمة معه، قد رأت أن اليمن لها صحبته ومجمعه، فساروا صحبته على الوفور والكمال، والظهور والاقبال، في أحسن حال وأتم آمال، حتى وصل رباط الفتح، ومناط النجح، بسلى المذكورة، فأراح بها منتظراً لاستيفاء المتأخر من العساكر إلى المتقدم، ووفاء عدة الفتى المعتذر المتلوم، واكتفاء الشيخ الطائع المجاهد المنهزم. فتلاحقوا، واستوفوا بجمعهم وتسابقوا، مبادرين بحسن الطوع الذي بين ضلوعهم، ونزلوا بمحلَّاتهم خارج سلى بالفحص المتصل بغبولة[4] فضاقتْ عنهم الأرض فاتَّصلوا حتى إلى أرض

(1) صفحة 79 - 80 من المن بالامامة.

(2) الموافق 21 يبراير 1163. ويلاحظ أنه لا أثر إلى الآن في المغرب للاحتفال بالمَوْلِد.

(3) لم يذكر ابن صاحب الصلاة المنازل مفصلة كما فعل في مناسبات مماثلة لأنه لم يحضر هذه التنقلات بنفسه ولذلك فقد طوى ذكر وادي تانسيفت ودشر الحطابة، وتونين وتوقطين وأم الربيع والجيسل أو وادي كساس ومكول.
انظر ابن صاحب الصلاة 53-303-304.

(4) تقع عين غبولة في الجنوب الغربي لمدينة الرباط على بعد تسعة عشر كيلومتر منها، ابن أبي زرع: القرطاس ثان ص 167 ـ الاستقصا ثان ص 128. Caillé: **la ville de Rabat**, p. 27.